العصور الثلاثة للفلسفة الحديثة ومهمة فكر معلمن

لوك فيري

لنتوقف في البداية عند الملاحظة التالية: ليس ثمة اليوم أي فيلسوف يمكن أن يقارن بالكتاب الكبار في الماضي، فلو ادعى أحدنا القدرة على كتابة عمل من قيمة جمهورية أفلاطون، أو ما بعد الطبيعة لأرسطو أو تأملات ديكارت أو أخلاق سبينوزا أو نقد كانط أو فينومينولوجيا الروح لهيجل، لعرَّض نفسه للتهكم. لقد أضحى لدينا هذا الإحساس بمثابة بداهة تعمي الأبصار إلى درجة أننا ننسى أنه يجب وضعها هي أيضا موضع تساؤل فلسفي.

إنني أعرف بطبيعة الحال الاعتراض الذي قد يوجه إلي والذي مفاده: أننا لازلنا نفتقد للمسافة التاريخية الضرورية للتمييز بين المفكرين الحقيقيين. لكن هذا الاعتراض إذ ما كان مقنعا للبعض، فهو لا يقنع البعض الآخر. فالمعاصرون لأفلاطون أو لديكارت أو لكانط لم يكونوا في حاجة لأي مسافة من أجل الكشف عن عظمتهم، وزيادة على ذلك فإن الأعمال الأكثر شهرة اليوم لانجد فيها لا البعد النسقي ولا الطموح الميتافزيقي، الذي نجده في الأعمال الكلاسيكية فهابرماس ليس هو هيجل، وجون راولز Rawels ليس هو كانط، وآبلApel ليس هو فيخته.

إن القول بنهاية المشاريع الكبرى، أو القول بتحول ما، أصاب البشرية قصد تفسير مسألة قلة العباقرة اليوم، لهي أقوال غامضة لا توضح أي شيء، بل إنها هي ذاتها أعراض تحتاج إلى تفسير. الظاهر إذن، أنه من ا لمعقول تقبل فكرة كون مهام الفلسفة نفسها قد تغير معناها ووضعها منذ نهاية القرن19م.

إنني أطرح كفرضية وجود ثلاثة عصور للحداثة:

1) عصر تأسيس الأنساق الكبرى التي حاولت منافسة الأديان في حدود العقل.

2) عصر التفكيك التي تعلن "موت الإله" و "نهاية الفلسفة" كمشروع ميتافيزيقي.

3) العصر الذي نعيش فيه والذي يبقى من مهمتنا تحديده.

I ـ العصر التيولوجي أو عصر الصراع ضد الدين، وإضفاء الصبغة النسقية على الأنطو ـ تيولوجيا

لقد عرفت الفلسفة الكلاسيكية كتابا كبارا أنتجوا لنا أنساقا كبرى في مجالاتها المعروفة: تيولوجيا، أخلاق، سيكولوجيا، كوسمولوجيا، جماليات، فلسفة اللغة، الحق والسياسة لقد أخذت هذه البناءات الخارق بعين الاعتبار، كل أوجه المعرف النظرية منها والعملية، حيث تم التعرض للأسئلة القصوى التي تخص "معنى الوجود الإنساني: و"مصير الإنسان"، وربما كان ماركس هو آخر من بلور رؤية شمولية للعالم، وآخر من تحمل على عاتقه، مشكلة المعنى ببعثه للأمل في وجود الخلاص على الأرض مع مجيء مجتمع بدون طبقات.

يشكل هذا الطموح إذن سمة العصر الأول من الفكر الحديث، فليس ثمة أي فيلسوف من ديكارت حتى ماركس، لم يحاول منازعة الدين وقطع الطريق عليه في كل مجالات العقل. بل إن التيولوجيا ذاتها تمت صياغتها من جديد بمصطلحات فكر نسقي متمركز حول الإنسان anthropocentrique. فالله ذاته يخضع مع لا يبينز، لمبدأ السبب الكافي الذي هو مبدأ منطقي من وضع العقل البشري، لذا فليس ثمة أي صدفة إذا ما طمحت الميتافيزيقا المعاصرة في البلدان البروتستانية إلى إدراك الحقيقة في ذاتها، دون المرور بأي واسطة كهنوتية أو تراثية (لوثر). إن المثالية الألمانية ليست بهذا المعنى شيئا آخر سوى علمنة كبرى للإصلاح اللوثري (luther).

لقد اختفى هذا التحدي العظيم، الذي سعت من خلاله الفلسفة إلى سحب البساط من الدين، فلن تجد اليوم أي فيلسوف يطمح إلى إنتاج عمل مماثل للانساق التيولوجية الكبرى. إن هذا التحول الحاسم، هو ما يُشاهِدُه كأفول، الجمهور المُوجَّه من طرف وسائل الإعلام التي تتسابق من أجل تشكيل "الرأي العام". فلقد اختفى أصدقاء الحكمة ولم يعد ثمة من في مقدوره الكلام عن "معنى الوجود الإنساني"، وتنازل كل من القس والعَالِم عن حقوقهم التاريخية، وأمسى الفيلسوف يظهر بوجهين لا تأثير لهما:

أولا: كأستاذ مقتدر دون أن يكون فيلسوفا.

ثانيا: كمثقف تدفعه الضرورة للتعبير عن رأيه بخصوص كل القضايا المطروحة لكي يتحول بعد ذلك إلى وجه إعلامي، سطحي ونرجسي، مُوهِما الجمهور بأن شخصية الحكيم لازالت حية ترزق.

نعم، قد نقول إن هذه الوضعية وضعية كارثية ويمكن لكل واحد أن يرثيها على طريقته: فالأستاذ المقتدر يستخف بمثقفي وسائل الإعلام، وهؤلاء بدورهم يتهمونه بالغيرة، إلا أن هذا

الصراع يخفي انقلابا عميقا، لا يظهر للوهلة الأولى على حقيقته. فالإحساس بالفراغ الذي يمتلك هؤلاء، مرده إلى الجهل بالنتائج المتأخرة لعلمنة للفكر هذه، الذي لم يعمل العصر الأول للفلسفة إلا على تدشينها، هذا الجهل هو الذي يمنع من إعادة صياغة مبادئ عمل فلسفي مُعَلْمَنْ في مصطلحات إيجابية إن ما نعيشه ونشاهده منذ ما يزيد عن قرنين،- وألتقي هنا مع التشخيص الذي قام به مارسيل غوشيه Marcel Gauchet في كتابه Le désenchentement du monde هو تاريخ إنحلال بطيء لمجالين متلازمين: مجال الأنطولوجيا ومجال التيولوجيا. إن الأمر لا يتعلق كما يقول إدغار موران Edgar Morin بمرحلة إنتقالية بل بأزمة بنيوية وتاريخية. فإذا ما وضعنا الفلسفة المعاصرة داخل هذا السياق التاريخي، سنجد أنها لم تتوقف منذ ما يزيد عن قرن، من الربط ما بين قضيتين كبيرتين: قضية "موت الإله" و قضية "نهاية الفلسفة". لقد أدركت الفلسفة أنه بتخليها عن أن تكون دينا معلمنا تكون بذلك قد عَجَّلَتْ بنهايتها. ها نحن إذن قد أشرفنا على نهاية عصر ثان هو عصر التفكيك، ويجب علينا الآن تحديده هو أيضا من أجل الإمساك بحاضرنا.

II ـ العصر الجينالوجي : تفكيك الميتافيزيقا

لقد حاول كتاب "فكر 68" تحليل الطفرات الأخيرة لهذه الإرادة الجيينالوجية التي تجد سندها في المشروع التفكيكي، الذي يمكن رده إلى هايدغر أو إلى نيتشه. لقد كان الفكر المعاصر منذ فلسفة نيتشه وحتى لحظة الفلاسفة الفرنسيين لسنوات الستينات، فكرا تفكيكيا، في جوهره، للتراث الميتافيزيقي الذي أتينا على ذكره سابقا.

لقد سعى هؤلاء الفلاسفة إلى التخلي عن الخاصية الدينية للأنساق الكبرى بإثباتهم موت الإله. وجعلوا من مهمتهم تحديد أصل ومنبع الأوهام المؤسسة للفلسفة الكلاسيكية، وتفكيكها، ليصبح الفكر، فكرا تاريخيا، يفضل إعمال المطرقة، في التعامل مع التراث، فنيتشه كان فيلولوجيا وهايدغر هو أول مؤرخ للفلسفة مولع بتحليل الانفصالات العميقة في الفكر. ليس ثمة إذن أي إنتاج للأنساق الفلسفية بل فقط حوار مع الفلاسفة السابقين. كل شيء يحدث كما لو أنه من اللازم علينا المرور من خلال الفلاسفة القدماء من أجل فهم الحاضر. الظاهر إذن أن هذه العلاقة التاريخية مع الماضي، أضحت تفرض نفسها على الجميع، وهي (أي هذه العلاقة) تفترض مسبقا نوعا من الضبابية، أصبحت تلف صورة الفيلسوف، فلم يعد هو ذلك الحكيم الذي يتقاسم مع القس مفاتيح معنى الوجود البشري، بل أصبح رجلا متواضعا تنحصر مهمته في فك شفرات منطق تاريخية الفكر، بما هو إنحطاط مع نيتشه وبما هو أفول مع هايدغر. نعم إن الجينالوجي يلقي نظرة نقدية على عصره، إلا أنه يستهدف أيضا العصور السالفة الممهدة له، مبتدأ بنقد الأفلاطونية بما هي أصل الميتافيزيقيا الحديثة التي يجب مجاوزتها وتحطيم "أوثانها". إن كل الصعوبات التي يطرحها هذا العصر، تأتي من هذه المفارقة العجيبة: رغم أن الجينالوجيا تنخرط في التقليد الأنواري، الداعي إلى النقد، وتشارك

في السيرورة الواسعة لعلمنة العالم، فإنها تروم في نفس الوقت إخراجنا من المرحلة الأولى، المرحلة النسقية والتيولوجية، إنها إذن لمفارقة؛ ففي الوقت الذي تساهم فيه هذه الفلسفة في تعميق النقد الأنواري، تدافع عن أطروحات معادية للتراث العقلاني الكلاسيكي، وتقدم نفسها في ثوب فلسفة نقدية ما بعد حداثية متحررة من الأوهام الذاتية للحداثة، إلا أنها تنسى أن أي نقد، كيفما كان، يفترض، شئنا أم كرهنا، الذاتية؛ أي تعارضا بين الوجود واللاوجود، هذا التعارض الذي يدعي كل محتقري الميتافيزيقا أنهم بصدد هدمه، وليس هذا فقط، بل إن الديمقراطية الحديثة هي المجال الملائم حيث يمكن اختبار المعايير والقيم ذاتها، وهذا ما يفسر كون هذا المثقف الناقد يجد مكانه الطبيعي في هذا المجتمع الدمقراطي الليبرالي، الذي يسعى حثيثا إلى خلخلة أسسه. هذا هو السبب أيضا الذي يجعل مسألة مجاوزة التراث الفلسفي الكلاسيكي، تصطدم بنظريات الحجاج théories d'argumentations فالذاتية عند فلاسفة الشك، محكومة بالقوى اللاواعية أي بقوانين لا تتحكم فيها، لذا فأي حديث عن الحجاج يفترض في نظرهم الذاتية، لا عجب إذن، إذا ما وجدنا هؤلاء الفلاسفة يفضلون مبادئ المشروعية التقليدية، على مبادئ الديمقراطية، وفلاسفة فرنسا هم خير دليل على ما قلناه، لقد أضحت ممارسة التفكير عندهم، طقسا، عملا عقيما، يدور في حلقة مفرغة، نعم، يمكن تطبيق أفكارهم على حقول معرفية أخرى كما فعل فوكو Foucault بخصوص المؤسسات الحديثة. إلا أنه حتى هذا العمل لا يمكن أن يستمر إلى ما لانهاية، ها هو العصر الثاني للفلسفة يلقى ذات المصير الذي لقيه العصر الأول. فالإحساس بالفراغ هو هو، ليس ثمة أعمال عظيمة، فدولوز ـ رغم ما يمكن أن يقوله عنه أصدقاؤه ـ ليس هو نيتشه، وديريدا لم يعمل إلا على وضع رتوش صغيرة في الطريق الذي خطه هايدغر، أما التوسير Alhusser الأستاذ الكبير، لم يكن له نفس تأثير ماركس، الشيء نفسه يصدق على لاكان lacan أمام فرويد. قد يعترض علينا معترض، بالقول: إن كلامنا هنا مجرد مزايدة رخيصة، لكن الذي أعرف هو أن أصحاب هذا الاتجاه أنفسهم، لم يدعوا يوما ابتعادهم عن الطريق الذي خطه أساتذتهم السابقون.

III ـ المهام النظرية والعملية للفلسفة المعاصرة

(التأريخ المفاهيمي، الأنطولوجيا والنقد من الداخل) لايتميز النشاط الفلسفي فقط بإبداع للمفاهيم كما يذهب إلى ذلك دولوز Deleuze، فالعلوم تتقاسم هذا الدور، إن لم تكن تتجاوزه في ذلك، كما أنه لا يختص وحده بالتفكير réflexion، فنحن نعلم أن هناك علوما أخرى تضطلع بهذه المهمة كالرياضيات... إلخ.

لكن، إذا كان الأمر هكذا، فهل ما زالت هناك سمة ما تُميز الفلسفة بعد مرحلة تأسيس الأنساق الكبرى ومرحلة تفكيكها؟

إن سؤالنا هذا يستحق أن يطرح حتى بالنسبة لأولئك الذين لا يتفقون مع طريقة التأريخ التي قمت بها للمرحلتين السابقتين، وذلك لسببين رئيسيين:

السبب الأول خارجي: لقد أشاع صعود العلوم الإنسانية في سنوات الستينات فكرة مفادها: أن زمن الفلسفة قد ولى إلى غير رجعة، فيجب أن تترك مكانها لميادين علمية كالسوسيولوجيا والعلوم الإنسانية.

السبب الثاني داخلي: لقد أصبح وجود الفلسفة بعيدا عن التفكير العقيم للتفكيك وأيضا "التأمل الشخصي" العزيز على مفتشي الفلسفة، وجودا إشكاليا. فما الفلسفة إذن؟ إذا لم تكن لا نقدا للميتافيزيقا؟ ولا ممارسة للتأمل في تاريخ الفلسفة؟ إنني أعرف ممارسين للتفكيك حاذقين من أتباع هايدغر أو نيتشه، وكذلك مثقفين إعلاميين متميزين. لكن ما القول في الفلاسفة القدماء من قبيل أفلاطون وأرسطو وسبينوزا وكانط وهيجل، الذين نستمر في قراءتهم، بل ومنا من درسهم في الجامعة بوصفهم يمثلون التراث الفلسفي بامتياز؟ هنا يطرح سؤال حقيقي، لا أجد له جوابا واضحا في الممارسة الفكرية كما أراها في الجامعة. صحيح، أن هناك أسماء فرضت نفسها مثل بول ريكور Paul Ricoeur وليفناس Levinas. إلا أنك لن تجد عندهما أي انشغال بتوضيح مهام الفلسفة اليوم. إنهم على الأرجح يحيلون في كتاباتهم على حكمة أخلاقية ودينية، على صرامة فكرية شخصية، وليس على طريقة في التفكير تطمح إلى أن تكون في مستوى كبار الكتاب القدامى. فإذا ما غضضنا الطرف عن الابستمولوجيا بما هي تفكير خاص في العلوم، فالظاهر، أن الفلسفة لم يبق لها من مهمة جديدة على المستوى النظري سوى قراءة للواقع لا تتماهى مع القراءة التي تقوم بها الرياضيات أو البيولوجيا أو الفيزياء ولا حتى التاريخ أو السوسيولوجيا أو السيكولوجيا. إذا كان لا يمكن للفلسفة أن تنتج الأنساق الكبرى وإذا ما كان لا فائدة من وراء الطموح لتفكيك لا نهاية له لأنساق الماضي، فما يتبقى لنا اليوم، ليس هو فقط الكشف عن رؤى العالم التي غذت مسارنا التاريخي، بل وأيضا إستعمال مفاهيم الأنطولوجيا استعمالا نقديا من أجل تطبيقها لفهم تاريخنا الماضي والحاضر. هناك إذن طريقتان للتأريخ:

الطريقة الأولى: تتتبع تاريخ ميلاد وظهور اللحظات الفلسفية المؤسسة لتراثنا.

الطريقة الثانية: إعادة توصيف التاريخ الفكري بكيفية نقدية حتى نستطيع تطبيقه من أجل فهم حقول جديدة تنفتح أمامنا.

ولأن ضرب الأمثلة قد يغني في بعض الأحيان عن تسويد صفحات، سأضرب مثالا من بين الأمثلة العديدة، لعله يوضح خصوصية مهمة الفلسفة المعاصرة.

وليكن هو مفهوم الطبيعة في الفكر الحديث: لقد علَّمَنا التأريخ للأنطولوجيا أن هذا المفهوم قد غَيَّر من معناه بشكل جذري، ليس فقط في اللحظة التي مَرَّ فيها من "عالم منغلق" إلى

"كون منفتح"، بل في اللحظة التي خرج فيها من جبة الإرث الديكارتي والأنواري، إلى فضاء الرومانطقية الألمانية. يظهر هذا التحول بشكل جيد في عملية المرور من جمالية كلاسيكية حيث تتحدد الطبيعة كماهية عقلية أو رياضية للواقع، أي بعبارة شبه أفلاطونية بما هي جوهر يوجد في ما وراء الظواهر المرئية، إلى جمالية رومانطقية حيث تتعين الطبيعة فيها، على العكس من ذلك، كواقع أصلي، لم يُدنس من طرف الفكر، فهدف الديكارتيين الكلاسكيين كان هو اللجوء إلى حصن العقل لإدراك الواقع المختبئ عن الحواس، أما الرومانطيقيون على العكس من ذلك، فكانوا يهدفون إلى التخلص من كل تدخل بشري من أجل العودة إلى الطبيعة الأصلية. قد تردون بالقول: هذا مجرد مثال بسيط ومعروف، وهذا صحيح، لكنه يظهر لنا كيف تتمفصل المستويات الثلاث للتفكير الفلسفي:

1) الأنطولوجيا (يتطلب مفهوم الطبيعة تحديدا لماهية الوجود في كل فترة).

2) التأريخ (لايتعلق الأمر بتأسيس أنطولوجيا جديدة ولا بهدم أخرى قديمة، بل بإعادة توصيف تاريخ اتصالاتها وانفصالاتها).

3) تطبيقات من أجل فهم حقول توجد خارج مجال الأنطولوجيا (الجماليات، الفيزياء، الإيكولوجيا، النظرية السياسية ... الخ).

هذا العمل بالكاد يبدأ في السنوات الأخيرة، وهو عمل لا يمكن استبداله بمعالجة أخرى سوسيولوجية كانت أم سيكولوجية، ذلك أن الفلسفة وحدها تهتم بكيفية واضحة بالتأريخ للأنطولوجيا ولتشعباتها. الظاهر أنه يجب في هذا المنظور إعادة صياغة المهام العملية للفكر المعاصر، التي لن تكون شيئا آخر سوى تحمله لتراثه الخاص، دون أي إدعاء باستعادته أو التخلص منه ذلك أن فهم ما هو حاضر لن يجدي نفعا إذا لم يمتلك دلالة عملية. إن فهم وضعية العصر الحاضر ليس لها من معنى إلا من منظور نقد للزمن الحاضر. نعم، إن الأجيال التي سبقتنا قد مارست أيضا هذا النقد من خلال موقفين: موقف اليمين وموقف اليسار، فأصحاب اليمين ينتقدون المجتمع الديمقراطي باسم عصر ذهبي مفقود، وأصحاب اليسار ينتقدونه باسم مستقبل زاهر ومشرق. بيد أن المهمة العملية الممكنة اليوم كما أراها، هي مهمة النقد الداخلي: أي تحليل واقع هذا المجتمع باسم مبادئه الخاصة ذاتها، باسم وعوده التي لا يفي بها. فبالرغم مما يظهر للوهلة الأولى، فإن النقد الداخلي أكثر فعالية من النقد الذي يمارس باسم طوباويات، تروم تجاوز المجتمعات الديمقراطية، إما في أفق الفاشستية أو الماركسية. فبعد قرنين من الطوباويات المهدوية، يظل التمسك بمبادئ الديمقراطية أكثر حكمة وأكثر قدرة على فتح أفق لانهائي قصد التفكير والعمل.

يحاول العالم العلماني اليوم، أن يعيد طرح مسألة المعنى ذات النفحة الدينية، من خلال كشفه عن فكرة اللانهاية ذات الأصل الأنواري، فسواء تعلق الأمر بالتربية أو بالثقافة أو بالأخلاق، لم تعد الفكرة التيولوجية عن الغاية القصوى، ذات معنى، وأصبحنا نعلم علم اليقين، أننا نعيش داخل سيرورة بدون غاية، وأن التقدم لا يعني الولوج إلى مرحلة قصوى ينتفي معها أي إمكان للتساؤل. بل إن مسألة المعنى لن يقيض لها أن تطرح من طرف الكائن البشري، إلا من خلال فكرة اللانهاية.

ترجمة: إسماعيل مجغيط
عبد العزيز عبقري
فاطمة آيت يوسى

عن كتاب: Philosopher à Dix huit ans Paris Grasset 1999.